يرى ان المحلية عين صغيرة، لكن ليس بالغائها يتم التحديث

صادق الصائغ: لا انافس احدا في الشعر سوى نفسي

حوار: علي عبدالسادة

القوة السياسية المهيمنة هي من يصوغ القيم والمعايير ، فلابد اذن ، ان يكون المثقف اول من يتلقى الضربات. وبالنسبة لي ، فقد كنت معارضا على أكثر من صعيد ، فكيف لا ادفع ، كغيري الثمن؟

مع ذلك فلم

هل شارك الصائغ في التغيير؟

× بعد إكمال دراستك في براغ عدت الى بغداد عام ١٩٦٧، كيف كان المشهد االشعري؟

ـ لم تكن البداية سيئة. ألمشهد الشعري كان في قمة اشتباكاته، تعرفت على سركون بولص وفاضل العزاوي وعبدالقادر الجنابي وطهمازي وجليل حيدر ومنعم العظيم وجان دمو ومؤيد الراوي وفاضل العزاوي وكاظم حيدر وشاكر حسن ال سعيد ورافع الناصري ،ويوسف الصائغ وآخرين،هؤلاء وخلائط من كل نوع ، على تناقضاتهم، شكلوا عائلة صغيرة داخل وسط خال من الحب . وكما قلت فإن العراقيل وضعت بوجه الجميع، وكنت أنا محسوباً ضمن هذا السياق ، مع ضغوط إضافية، باعتباري ، في ذلك الوقت عضوا في الحزب الشيوعي العراقي ، ويوم وصلت الى بغداد ـ وكان هذا في زمن عبدالرحمن عارف ـ بجواز سفر اصفر. يمنح للمشكوك بهم . بقيت عاطلا لفترة طويلة . وكما قلت فقد كانت هذه الفترة مقبولة نسبياً ، لكن حزب البعث الذي جاء كما يعرف جمعنا المنفى، أنه لم يقرأ القصيدة اصلا، وان ماكتبه كان مبنياً على سماع مشوه. اما النص الأصلي المجتزأ فكان يقول: " تبول الحقيقة في ثوبها، ترتخي فوق عشب العراق وتسعف بالبنسلين" .

حكيت لك كل هذا لأتوصل للقول مثل هذه الإحداث وغيرها وضعتني تحت اضواء المصادفات، وما كان لهذا أن يحدث لو لم اكن أتبنى الكتابة، والشعر خاصة، شكلا من اشكال الدفاع عن النفس ورغبة غير مباشرة في التحدي .

× كنت، وأنت حزبي، تتحرك، كما قال عبد القادر الجنابي ،خارج الأيديولوجيا المقررة، وعلى عكس موقف الحكومة العراقية الرسمي وموقف الأحزاب الشيوعية. هل منحك الشعراء التشيك، والسينمائيون والرسامون،بشكل خاص، بعض ما جعلك تكتب بلهجتك الخاصة التي اسماها احمد حسن البكر ، ذات مرة، غير بعثية .كيف لشاعر متمرد ان يناغم بين تمرده ومرجعيته السياسية والأيدلوجية؟

ـ طبعاً ، لكن دعني أقول اني كنت مهيئا للتوصل الى نسق ما يلائمني، حتى قبل ان اغادر العراق عام ١٩٦١، كثيرون كانوا يعتقدون ان في منطقي "خلل" يضعني خارج المنطق السائد ويمنع من ان أتماهى مع ما هو قائم أو موجود. كتبت مثلاً قصائد نثر نشرتها البلاد واتحاد الشعب، وكانت هذه اولى العلامات التي اشارت الى أني اضيق بالنمط التفعيلي الذي كنت اكتب فيه والذي .. بتقادم الزمن، احسست به يخنق طبيعتي. وكان عقلي الباطن يشق، بالوان واخيلة تناسب تكويني. وفي فترات لاحقة قرأت الشعر الأمريكي والفرنسي وتأثرت بالسرياليين والدادائيين وأحببت التجريد بشكل خاص.

ويوم التقيت شخصيا، وللمرة الأولى، بالشاعر الامريكي الن غزنبيرغ في مقهى فيولا في براغ، وقرأت له قصيدته الشهيرة "عويل" مترجمة الى اللغة العربية ذهل الرجل،فلم يكن يتصور أنه يمكن ان يكون معروفاً من قارئ عربي. لقد عمق غزبيرغ روح التحدي على المستوى السلوكي، لم يكن يخاف شيئاً، واثناء وجوده في براغ توج ملكا "لربيع براغ في اكبر مهرجان شعبي رفضت الحكومة المشاركة فيه. لقد استمر اعجابي به لفترة ثم توقف، لم أجد في شعره اللاحق أمثلة مشابهة لقصيدة "عويل"، وقد تراءى انه بالغ في ربط الشعر بالحدث الآني ووقع الى حدما في فخ المباشرة الشعبوية. ومع ذلك فقد شكل حضوره الشعري، قيمة معيارية في مسيرة الصراع بين التراث والحداثة.

اصل الحداثة وهمها

× هذا الجيل المهموم بالحركة الثقافية الطليعية وتأسيس الحداثة وترسيخ التجديد وكسر المالوف والسائد، هل كان الهم الكوني كافيا بالنسبة له لتسريب أنساغ الحداثة الى الجسد الثقافي والمعرفي المحلي؟

ـ التقدم في رأيي مفهوم ثوري/ معرفي، وعناصر التحديث موجودة حتى في أقدم النصوص كلاسيكية ، وفي كل جيل تنشأ اجنة رافضة لاشكال الواقع، سعيا الى حقائق ورؤى فلسفية جديدة للعالم" .

البشرية لم تنجح في تحقيق وجودها على المستوى الانساني، نعم، هناك مجتمعات مدنية، أنجزت تقدماً في المجالات ألاقتصادية والإجتماعية والثقافية والعلمية، لكنها لم تنجز شيئا يذكر في مجال الدفاع عن الوجود الإنساني ككل. الحداثة، كما أظن، تعالج هذه الإشكالية في المستويات التي لم تقاربها حضارتنا بعد. وحتى الآن فإن أفضل قيم عالمنا الحالي تخلق بأيدي المفكرين والكتاب والشعراء والفنانين مع مساهمة ضئيلة من سياسيين مغمورين. والحداثة التي هي خلاصة معرفية للتجربة الإنسانية الكونية تدفع بهذا الإتجاه، صحيح ان المحلية عين صغيرة، لكن ليس بالغائها يتم التحديث، ولا بد لأي تحديث حقيقي أن يرتبط بالمكان والبيئة وبالواقع الوجودي الإنساني بشكل عام. وإلا فستقتله العزلة.

× هل تعتبر نفسك بين الشعراء المقروئين؟

ـ مرة أخرى أقول لا أعرف إن كان شعري مقروءا أم لا .هذا شيء يختلف عليه كثيرون أو قليلون. الذي أعرفه هو ان أي شاعر يتمنى ان يكون مقروءا ، والا لم اكتب؟ ..أكبر مكافئات حياتي هي ان أسمع احدا يقول لي إن قصائدي أعجبته. انا مثل آخرين أخاطب جماعة، لكني غير متأكد إن كانت موجودة أم لا، هل ستحب ما اكتبه أم لا. امر واحد انا متأكد منه هو أن الكاتب يخاطب نفسه قبل أن يخاطب الآخرين. الكاتب يتممه القارئ ، وإلا فالمعادلة ناقصة. والناتج هو العزلة..

× وانت، هل أحسست يوماً بالعزلة على مستوى علاقتك بالقارئ؟

ـ لاً أعتقد .. لم اشعر بعزلة لوثوقي انني لا اتنافس مع احد غير نفسي، فسماء الإبداع تتسع للجميع ولو أحسست بذلك يوماً لكففت عن الكتابة. العزلة الوحيدة التي أراها تليق بالشاعر هي تلك التي يختارها هو ليختلى فيها بقصيدته، وفي مديح مثل هذه اللحظة الخاطفة قلت مرة: " القصيدة شمس والباقي ظلام" وقلت أيضاً ان العزلة لحظة الكتابة امتلاك للذات. كنت متمردا، يطرح اسئلة ولا اعرف الاجابة عن أكثرها. واكثر ما كان يكبلني هو الادلجة والكتابة الواقعية على الطريقة السوفياتية ومقاييس الأبداع تصلح للظهور في كل مناسبة، مثل هذه المعايير عمقتها بتتابع أزمان السلطات المهيمنة والإتباعيين السلفيين، وحتى الأحزاب السياسية، وازدادت الظاهرة عمقا ، بعد سقوط صدام وظهور فضائيات دينية وعشائرية وقومية تنظر لشعراء "مليون"، ومن جديد أحتل الشعر الخطابي، خاصة الشعبي منه موقع الصدارة.

•تقول ان الفن تأسس منذ البداية على المونتاج واللصق والكولاج، وان المونتاج وجد في السينما قبل ان يوجد في الأجناس الحداثية الاخرى ..

– نعم .. آيزنشتاين وضع توقيعه في المدرعة بوتومكن، والدادائيون والسرياليون في الشعر والتشكيل، وفي الثلاثينات أطل الأمريكي روشنبرغ بفكرة " الفن الخليط " وجايله روشنبرغ وجايله أنلريكو باج وجاسبر جونز وغيرهم، ومسلم به ان الحداثة بدأت على يد الذين اشتغلوا على الكولاج. ولاحقا انتقل هذا الفن الى الأدب وكل الأجناس الأخرى.

وبالنسبة لي، استطيع القول إني عرفت الشعر في سينما غازي قبل ان اعرفه في الادب. فعالمي الخاص إنطلق من شريط ضوئي الى عوالم بصرية أختلط فيها البناء والتركيب والضوء واللون والحركة في فن واحد خليط. وأعتقد ان من يطلع على شعري سيجد كل هذه العناصر موجودة في السطوح الداخلية المركبة والمتعددة .

ومازلت كلما مررت بسينما غازي التي كانت تقع في نفس المكان الذي تشغله الآن حديقة الأمة ملجأي الدائم أصدر حسرة على ما ضاع، ففي صالتها المظلمة تعرفت على فنون وعوالم متفرعة نقلتني من موقع التواجد المحلي الى مواقع كونية جديدة. وعبر شعرية السينما تعرفت لاحقا على العلاقة التي تربط كل الفنون بالأدب. وأضحت هذه الشعرية معيارا لكل جنس إبداعي ، سواء أكان رسماً او خطاً أو تشكيلا أو مسرحاً.

البيك والملك

ـ عام ٧٣ اقتبست من بريشت نصا مسرحيا اسميته "البيك والسائق" ويقول البعض ان هذه المسرحية سجلت أعلى صعدة فنية في تاريخ المسرح العراقي" فقد حازت على جائزة مهرجان دمشق. وكتب عنها نقود كثيرة في مصر، كما قال يوسف العاني. فلمَ الإعداد ، ولماذا اللهجة العامية؟

ـ كان هذا تحديثا للهجة المحكية السائدة من وجهة نظري محاولة لنفلها من صيغتها الشارعية الى مستوى الأدب ،بحيث تستطيع التعبير عن مشكلات فكرية معقدة. لم اكن مقتنعاً بالحوارات الفجة والخشنة التي يكتبها كتاب المسرح والاذاعة ،باعتبارها تمثل اصالة وقوة الجملة الشعبية، كنت اظن ان هناك طاقة غير موظفة في بناء جمالي يستعير لغة الشعب ، لكن بطاقة عاطفية وفكرية مختلفة. وهكذا دخل الكولاج في صلب العمل وجرى تطعيم او تنافذ ما بين لغتين عامية وفصيحة. وذلك ما تم الاتفاق عليه مع ابراهيم جلال.

ان حركة الشعر داخل الجملة الشعبية كانت امرا محسوسا لدى عدد من المثقفين، ومن بينهم ابراهيم جلال، ومثلما جاء النص متعمدا في هذا الاطار فانه مثل رداً على اولئك الذين وقفوا ضده ، مدعين بأن االشخصية العراقية لا تستطيع إلا ان تفكر بهذه الطريقة. هذا التطعيم المركب بين الفصيح والشعبي فسح المجال للجملة الشعبية ان تتنفس هواء، وبالتالي تذوب داخلها،مسجدة لهجة المدينة، ومتجاوزة ما يدعى بلهجة اهل بغداد. وهنا أيضا تدخلت السلطة، فمنعت المسرحية بعد ان شاهدها صدام واطلقتها الى سوريا والقاهرة، ليكون لها قيمة المستند بأن العراق طليعي ويتقدم على بقية الدول العربية في المسرح. وبالفعل حصلت المسرحية على جائزة مهرجان دمشق وحظيت بعشرات النقود الطيبة في مصر، وسقطت الحجة التي تقول ان اللهجة المحلية العراقية تشكل عائقا للمتفرج العربي، كونه لا يفهم اللهجة المحلية. ومن ناحية اخرى، سوق النظام جلبة مفادها انه النظام الوحيد الذي يسمح بمثل هذه الحريات، وبالتالي فإن المسرح يموت في مصر ويحيا في العراق. وقد صدق اليسار المصري، الذي لم يعرف سوى القليل عن اوضاع العراق، هذه الفكرة ورددها.

المنفى ..

× حدثني عن المنفى .

ـ منفاي كان وجودياً قبل ان يكون فيزيقياً ، وأنت تعايش هذا النوع من النفي، سواء أكنت داخل العراق أو خارجه. هو ، من منظور فلسفي، رحلة ليل لا تنتهي. وهذا النوع من النفي يصنعه قدر وجودي لا فكاك منه غير ان هذا النفي يصبح مضاعفاً حينما يضاف اليه النفي الجسدي. في هذه الحالة ستحرم من كل ما يثبت انك حي. الهواء يصبح نادرا وغير صالح للتنفس . اجهزتك العقلية والعاطفية ، وفيها يعرف المنفي، بتقادم الزمن،أنه لن يجد بين اللغات، لغته التي أضاعها في ذلك الركن الصغير من العالم،والذي هو الوطن. والتعويض الوحيد هنا هو ان تصبح في حرز حريز، فلا يطالك كاتم صوت ويكون منفاك استثماراً، باعتباره موقع عمل، وستحصل على اوقات فراغ نادرة تتفرغ فيها لنفسك ، ولمشاريعك الكتابية.

× بعد خروجك من بغداد التحقت بالمقاومة الفلسطينية. هل انخرطت في ما كان يعرف بالعنف الثوري ألذي كانت ضرورته سائدة في تلك الفترة؟

ـ التحاقي بالثورة الفلسطينية كان امتدادا لـ" مقاومة " لم يتوفر لها طريق النجاح .في داخل العراق، او بالأحرى داخل قفص ما سمي بالجبهة الوطنية، ولأن طريق الشاعر يتوازى مع طريق الثورة، لذا التحقت بالثورة الفلسطينية، كما لو اني التحق بمنزلي.

نعم، في فترة دخلنا دورات تدريبية وزودنا بأسلحة، سعدي يوسف وانا أعطينا اقلام تحوي طلقة واحددة وتستطيع قتل رجل شرط ان تكون على بعد متر منه. ولما لم نجد من نطلق عليه فقد افرغ كل منا طلقته في صخرة تقع خارج بيروت، لقد ادركنا،منذ البداية ان المقاومة التي نجيد تعطي ثمارها داخل الكتابة الأنضج عندما تتحول الى الكتاب.

× وماذا عن بيروت نفسها؟

ـ بيروت كانت منطقة نور .. كل شيء يتدافع فيها كزوبعة، والتصاعد الثقافي في اعلى درجاته، المدينة لا تتوقف عن الحياة .ألحركة تتجسد في افياض من كتاب وقرا ء يأتون ليس لشيئ يثبت ولا شيئ يستمر. نحن العراقيون شكلنا في بيروت رابطة للكتاب والصحفيين المنفيين ضمت حوالي ٥٠٠ شخص وعقدنا العديد من المؤتمرات والفعاليات الثقافية، واصدرنا مجلة ثقافية باسم البديل؛ كنت اديرها مع الشاعر سعدي يوسف. مجلة البديل حازت على تعاطف العديد من المثقفين العرب وسعت الى استقطاب اسماء عربية مهمة. وكان حضور هذه المجلة متميزا لا لكونها تصدر عن رابطة لعراقيين منفيين، بل لتقديمها مادة ثقافية رصينة.

نفي اخر

× لكنك تركت بيروت الى براغ عام ١٩٨٣، قبل شهرين من الاجتياح الإسرائيلي بشهرين لظهور قائمة بأسماء عراقيين كنت بينهم.

ـ في الحقيقة كنت شاركت في مؤتمر لاتحاد الأدباء والكتاب الفلسطينيين الذي عقد في تلك الفترة، وضم عددا من البعثيين والقوميين العرب برئاسة ناصيف عواد. في المؤتمر فضحت النظام ما أثار غضب بعض المنتمين الى جبهة التحرير الموالية للنظام. الذين أخرجوني من القاعة بعد ان تحول الموضوع الى أزمة كبيرة، لكن ماجد ابو شرارة القيادي اليساري في منظمة التحرير الفلسطينية والذي اغتيل في روما، اعادني الى القاعة، معلناً ان حضوري شرعي وانني مدعو للمؤتمر من قبله. بعد هذه الحادثة ظهرت قائمة لمطلوبين للاغتيال قدمها ابو اياد الى فخري كريم الذي جاءني بنفس اليوم بباسبورت مزور،وكانت براغ ، مرة اخرى مستقري الجديد".

× ارتباطا بتجربة المقاومة كتبت للتلفزيون التشيكي نصين لفلمين وثائقيين، هما "صهوينية عادية" و"مفتاح للوطن":

– صحيح ..واتذكر ان عاطف ابو بكر الذي كان ممثلاً لدولة فلسطين في تشيكوسلفاكيا لم يكن يعرف أن لي علاقة بالتلفزيون التشيكي وانني كتبت ، بطلب منه ، فكرة النصين. وشاءت الصدفة ان يلتقي ابو بكر برئيس الجمهرية بمناسبة العيد الوطني، ودهش عندما سمع الرئيس ، يشيد بالفلمين باعتبرهما مكتوبين بلغة جديدة غير منمطة، وتمنى لو يترك الكتاب التشيك إيديولوجيتهم ويكتبون بالطريقة التي كتب بها هذين الفلمين التشيك. مع ذلك فإن صوت الفنان في المنفى يبقي مدفوناً ، هو من ناحية حيٌ يقظ، يفكر في دور اكبر مما هو مسموح به ،ومن ناحية ثانية هو قربان اسود لالعاب السياسة.، وفي مثل هذه الحالة تكون القصيدة عزاء وحيدا له ، وصراعه هذه المرة يكون مع ادواته ،هذا هو التعويض الأكبر.

عراق ما بعد صدام حسين

يدرك الصائغ ان الانظمة التي نشأت منذ طفولتها على الاستبداد، من الصعب ان تجد عملية البناء واعادة صياغة الانسان يسيرة وسهلة لذلك يقول:" انا على قناعة تامة بانني انتمي الى مساحة التغيير وليس الى التقليد والاتباع، وهنا تكمن صعوبة البناء. لا نملك البنية الثقافية السليمة، نفتقر الى سوق يروج للنتاج الابداعي، والطامة الكبرى في غياب القارئ، كيف لنا ان نسأل عنه في بلد تجتاحه افة الامية لتقضي على نسبة كبيرة من افراده.محنة الكاتب والمفكر في هذه الظروف كبيرة وجسيمة، وهي من مسؤولية الدولة والاحزاب السياسية، الجميع مشتركون في اعادة صياغة الحلم الانساني.

> لم يشعر بأنه مهمش .. يجد نفسه في المكان الطبيعي، ومكافأته ان يكون حراً وقادراً على الطيران

الحوار مع الشاعر صادق الصائغ مغامرةٌ لذيذةٌ في أجواء عوالم تزخرُ بضوءِ الشعر والمعرفة ووهج الفنون.

إنها مواجهة لا تنتمي إلى ارث المواجهات التقليدية .. انك تحاور متمردا وثائرا على نفسه، هو من القلة الذين أسرتهم إيقاعات الأسلوب الخمسيني، لكنهم افلتوا من تلك القبضة وانطلقوا إلى أفاق التجديد، ولك ان تكتشف الصلة التي يجسدها هو بين الثورة والحب، بين التمرد والعقلانية.

وهذه حيرة من يحاور الصائغ، عليه أولا ان يحزم أمتعة سفر من نوع خاص. عليه معرفة إن الشعر لديه هو أرض ميعاد ممكنة ووهمية في عين الوقت، كل تفصيل، كل حراك، صغيراً كان أو كبيراً يجري في إطار الشعر.

منذ البدْ، وهو يتعقب نداء الحداثة بوعي وبدون وعي، و يضعه البعض نموذجاً آخر لريادة شعرية لم تحصل على أحقيتها، قبلاً تكلم اللغتين. الخمسينية والستينية. ومع ان هاتين اللغتين لم تقتسما حياة، فقد كان كل منهما يجري بتواز مع الآخر.

"نشيد الكركدن" ، ديوانه الأول. عد علامة من علامات الشعر الستيني بعدئذ شعر الستينات وما تلاه من إضافات حققتها الأجيال اللاحقة. فمن قصيدة التفعيلة والعمود إلى قصيدة النثر سُجلت وقائع نقلة فصلت صيفه عن شتائه، كما يقول.

قلت للصائغ:

× نقاد كثيرون يقولون ان حضور الصائغ لم يُدرس بما يغطي الرقعة التي غطاها في شعره، لكن من تحريك قارئ نخبوي مميز كانت احدى مميزات ذلك الحضور. الى أي مدى ينطبق هذا القول عليك، وهل أحسست يوماً بأنك مهمش؟

ـ التهميش، وهو إماتة بطيئة، موجود في كل زمن ومكان، وعادة، يبدأ بسياسة القوة المهيمنة ولا ينتهي بالحزازات والأنانيات الشخصية. وجاء الاختلال الدائم لتصاب الثقافة الوطنية بعطوب وتتآكل الأنسجة الأقتصادية والثقافية والمعرفية للمجتمع ، وقي بلدنا ، ،حيث الوجود نفسه قائم على صراع دام تكون الثقافة في مقدمة ما يتلف أو يشوه. وبالتالي فأن فعل التهميش لا يصدر عن المؤسسة الرسمية المهيمنة فقط،، بل ان بعض المثقفين يتورطون في إدامة مثل هذا الإشكال. وما دامت اشعر يوماً بأني مهمش. كنت في مكاني الطبيعي. وكانت مكافأتي هي ان أكون حراً وقادراً على الطيران. وفي النهاية فإن صوت ألمهمش يبقى مسموعاً ، إذا كان موهوباً بالطبع، حتى لو ألقي في بئر. والتاريخ يثبت ذلك.

× هل أفهم من هذا أنك، مثل آخرين جايلوك، تستطيب التسمية، هل ترى فيها بعداً ايجابياً؟

الستينيون قدموا مفهوما جديدا للأدب، وإذا كان البعض قد ارتضى هذه التسمية، بل وأعلنها فخراً، فلأنه قصد بذلك اشياء، كثيرة، منها الدفاع عن النفس او التحدي أو التميز عن ادباء السلطة، كثيرون قوبلوا بالإنكار، لكنهم شكلوا جذرالكتابة الجديدة. لا يمكن ان يهمش المبدع إلا على مستوى السطح الإجتماعي، وما دام مصراً على اختيار طريق التجاوز والمجازفة والاكتشاف، فعليه أن يكتفي بغناه الروحي والرمزي. وبالتالي، فليس لغير التاريخ من يحق له الفصل في قضية مثل هذه. لقد كنت دائماً اكتب لنفسي، وكان همي الدائم ان أكون حراً داخل القصيدة. ويجب ألا ننسى إن القصة، في جانبها الأهم، هي قصة صراع بين قديم وجديد .

تصورات جديدة للعالم

× كيف تنظر الي تلك الفترة ، هل كانت فترة تغيير حقيقية ؟

ـ هذا سؤال مهم ، وقد أضحى جليا ان المسيرة الثقافية العراقية بشكل عام تحتاج الى مراجعة واعادة تقييم على كل المستويات.

وشأنها شأن الفترات التي سبقتها قوبلت بالصد، نظراً لإنفتاحاتها الفكرية على الخارج، كانت فترة تكوين كونية، تتجاوز لغة الضواحي المحلية، والانفتاح شمل الفكر السياسي والمعرفي والثقافي وكل الحقول الأخرى. وفي العراق يمكن ان نقول ان الستينات أسست لزمن شعري جديد ساهمت في إذكاء الجدل حول ما يعنيه الماضي والحاضر والمستقبل.. تيارات سياسية، كاليسار الجديد والجيفارية والتروتسكية والحركات الطلابية و المقاومة الفلسطينية والهبيز واليبيز والفهود السود والتوباماروس والألوية الحمراء و الماركسيين الجدد ـ القائمة تطول ـ كل هذه الاتجاهات ساهمت في رسم صورة جديدة للأمل القادم. وكان لابد ان ينعكس هذا على كل حقول المعرفة والفن، وبشكل خاص على التشكيل والسينما والشعر والمسرح. وكان منطلقاً لصيت هذه الفترة، منطلقا للعراقيين أيضا ان يجدوا لأنفسهم نهجا اسلوبياً ومضامين وانساق جديدة.

كانت هناك نخب صغيرة أطلقت هي الأخرى زمناً شعرياً جديدا وسجلت ألإشارات الأولى للتحديث، تجارب هذه النخب فاجأت الجميع بسرعة انتشارها وبحضورها في أغلب الصحف السائدة آنذاك، وقد بينت الوقائع انها لم تكن مجرد موجة عابرة، بل ترسيخاً لجذور تربط الماضي بالمستقبل. كما هو حال كل جديد، قوبلت هذه الإتجاهات بمقاومة عنيفة، لكن يحدث ان يغلب المغلوب الغالب، وهذا ما تحقق بالتأكيد.

قلت في حوار سابق ان الشعر لديك هو "الحياة على حافة الهاوية" ، هل ترى ان هذه الحافة قد تلاشت؟

× بعد إكمال دراستك في براغ عدت الى بغداد عام ١٩٦٧، كيف كان المشهد االشعري؟

ـ لم تكن البداية سيئة. ألمشهد الشعري كان في قمة اشتباكاته، تعرفت على سركون بولص وفاضل العزاوي وعبدالقادر الجنابي وطهمازي وجليل حيدر ومنعم العظيم وجان دمو ومؤيد الراوي وفاضل العزاوي وكاظم حيدر وشاكر حسن ال سعيد ورافع الناصري ،ويوسف الصائغ وآخرين،هؤلاء وخلائط من كل نوع ، على تناقضاتهم، شكلوا عائلة صغيرة داخل وسط خال من الحب . وكما قلت فإن العراقيل وضعت بوجه الجميع، وكنت أنا محسوباً ضمن هذا السياق ، مع ضغوط إضافية، باعتباري ، في ذلك الوقت عضوا في الحزب الشيوعي العراقي ، ويوم وصلت الى بغداد ـ وكان هذا في زمن عبدالرحمن عارف ـ بجواز سفر اصفر. يمنح للمشكوك بهم . بقيت عاطلا لفترة طويلة . وكما قلت فقد كانت هذه الفترة مقبولة نسبياً ، لكن حزب البعث الذي جاء كما يعرف جمعنا المنفى، أنه لم يقرأ القصيدة اصلا، وان ماكتبه كان مبنياً على سماع مشوه. اما النص الأصلي المجتزأ فكان يقول: " تبول الحقيقة في ثوبها، ترتخي فوق عشب العراق وتسعف بالبنسلين" .

حكيت لك كل هذا لأتوصل للقول مثل هذه الإحداث وغيرها وضعتني تحت اضواء المصادفات، وما كان لهذا أن يحدث لو لم اكن أتبنى الكتابة، والشعر خاصة، شكلا من اشكال الدفاع عن النفس ورغبة غير مباشرة في التحدي .

× كنت، وأنت حزبي، تتحرك، كما قال عبد القادر الجنابي ،خارج الأيديولوجيا المقررة، وعلى عكس موقف الحكومة العراقية الرسمي وموقف الأحزاب الشيوعية. هل منحك الشعراء التشيك، والسينمائيون والرسامون،بشكل خاص، بعض ما جعلك تكتب بلهجتك الخاصة التي اسماها احمد حسن البكر ، ذات مرة، غير بعثية .كيف لشاعر متمرد ان يناغم بين تمرده ومرجعيته السياسية والأيدلوجية؟

ـ طبعاً ، لكن دعني أقول اني كنت مهيئا للتوصل الى نسق ما يلائمني، حتى قبل ان اغادر العراق عام ١٩٦١، كثيرون كانوا يعتقدون ان في منطقي "خلل" يضعني خارج المنطق السائد ويمنع من ان أتماهى مع ما هو قائم أو موجود. كتبت مثلاً قصائد نثر نشرتها البلاد واتحاد الشعب، وكانت هذه اولى العلامات التي اشارت الى أني اضيق بالنمط التفعيلي الذي كنت اكتب فيه والذي .. بتقادم الزمن، احسست به يخنق طبيعتي. وكان عقلي الباطن يشق، بالوان واخيلة تناسب تكويني. وفي فترات لاحقة قرأت الشعر الأمريكي والفرنسي وتأثرت بالسرياليين والدادائيين وأحببت التجريد بشكل خاص.

ويوم التقيت شخصيا، وللمرة الأولى، بالشاعر الامريكي الن غزنبيرغ في مقهى فيولا في براغ، وقرأت له قصيدته الشهيرة "عويل" مترجمة الى اللغة العربية ذهل الرجل،فلم يكن يتصور أنه يمكن ان يكون معروفاً من قارئ عربي. لقد عمق غزبيرغ روح التحدي على المستوى السلوكي، لم يكن يخاف شيئاً، واثناء وجوده في براغ توج ملكا "لربيع براغ في اكبر مهرجان شعبي رفضت الحكومة المشاركة فيه. لقد استمر اعجابي به لفترة ثم توقف، لم أجد في شعره اللاحق أمثلة مشابهة لقصيدة "عويل"، وقد تراءى انه بالغ في ربط الشعر بالحدث الآني ووقع الى حدما في فخ المباشرة الشعبوية. ومع ذلك فقد شكل حضوره الشعري، قيمة معيارية في مسيرة الصراع بين التراث والحداثة.

اصل الحداثة وهمها

× هذا الجيل المهموم بالحركة الثقافية الطليعية وتأسيس الحداثة وترسيخ التجديد وكسر المالوف والسائد، هل كان الهم الكوني كافيا بالنسبة له لتسريب أنساغ الحداثة الى الجسد الثقافي والمعرفي المحلي؟

ـ التقدم في رأيي مفهوم ثوري/ معرفي، وعناصر التحديث موجودة حتى في أقدم النصوص كلاسيكية ، وفي كل جيل تنشأ اجنة رافضة لاشكال الواقع، سعيا الى حقائق ورؤى فلسفية جديدة للعالم" .

البشرية لم تنجح في تحقيق وجودها على المستوى الانساني، نعم، هناك مجتمعات مدنية، أنجزت تقدماً في المجالات ألاقتصادية والإجتماعية والثقافية والعلمية، لكنها لم تنجز شيئا يذكر في مجال الدفاع عن الوجود الإنساني ككل. الحداثة، كما أظن، تعالج هذه الإشكالية في المستويات التي لم تقاربها حضارتنا بعد. وحتى الآن فإن أفضل قيم عالمنا الحالي تخلق بأيدي المفكرين والكتاب والشعراء والفنانين مع مساهمة ضئيلة من سياسيين مغمورين. والحداثة التي هي خلاصة معرفية للتجربة الإنسانية الكونية تدفع بهذا الإتجاه، صحيح ان المحلية عين صغيرة، لكن ليس بالغائها يتم التحديث، ولا بد لأي تحديث حقيقي أن يرتبط بالمكان والبيئة وبالواقع الوجودي الإنساني بشكل عام. وإلا فستقتله العزلة.

× هل تعتبر نفسك بين الشعراء المقروئين؟

ـ مرة أخرى أقول لا أعرف إن كان شعري مقروءا أم لا .هذا شيء يختلف عليه كثيرون أو قليلون. الذي أعرفه هو ان أي شاعر يتمنى ان يكون مقروءا ، والا لم اكتب؟ ..أكبر مكافئات حياتي هي ان أسمع احدا يقول لي إن قصائدي أعجبته. انا مثل آخرين أخاطب جماعة، لكني غير متأكد إن كانت موجودة أم لا، هل ستحب ما اكتبه أم لا. امر واحد انا متأكد منه هو أن الكاتب يخاطب نفسه قبل أن يخاطب الآخرين. الكاتب يتممه القارئ ، وإلا فالمعادلة ناقصة. والناتج هو العزلة..

× وانت، هل أحسست يوماً بالعزلة على مستوى علاقتك بالقارئ؟

ـ لاً أعتقد .. لم اشعر بعزلة لوثوقي انني لا اتنافس مع احد غير نفسي، فسماء الإبداع تتسع للجميع ولو أحسست بذلك يوماً لكففت عن الكتابة. العزلة الوحيدة التي أراها تليق بالشاعر هي تلك التي يختارها هو ليختلى فيها بقصيدته، وفي مديح مثل هذه اللحظة الخاطفة قلت مرة: " القصيدة شمس والباقي ظلام" وقلت أيضاً ان العزلة لحظة الكتابة امتلاك للذات. كنت متمردا، يطرح اسئلة ولا اعرف الاجابة عن أكثرها. واكثر ما كان يكبلني هو الادلجة والكتابة الواقعية على الطريقة السوفياتية ومقاييس الأبداع تصلح للظهور في كل مناسبة، مثل هذه المعايير عمقتها بتتابع أزمان السلطات المهيمنة والإتباعيين السلفيين، وحتى الأحزاب السياسية، وازدادت الظاهرة عمقا ، بعد سقوط صدام وظهور فضائيات دينية وعشائرية وقومية تنظر لشعراء "مليون"، ومن جديد أحتل الشعر الخطابي، خاصة الشعبي منه موقع الصدارة.

•تقول ان الفن تأسس منذ البداية على المونتاج واللصق والكولاج، وان المونتاج وجد في السينما قبل ان يوجد في الأجناس الحداثية الاخرى ..

– نعم .. آيزنشتاين وضع توقيعه في المدرعة بوتومكن، والدادائيون والسرياليون في الشعر والتشكيل، وفي الثلاثينات أطل الأمريكي روشنبرغ بفكرة " الفن الخليط " وجايله روشنبرغ وجايله أنلريكو باج وجاسبر جونز وغيرهم، ومسلم به ان الحداثة بدأت على يد الذين اشتغلوا على الكولاج. ولاحقا انتقل هذا الفن الى الأدب وكل الأجناس الأخرى.

وبالنسبة لي، استطيع القول إني عرفت الشعر في سينما غازي قبل ان اعرفه في الادب. فعالمي الخاص إنطلق من شريط ضوئي الى عوالم بصرية أختلط فيها البناء والتركيب والضوء واللون والحركة في فن واحد خليط. وأعتقد ان من يطلع على شعري سيجد كل هذه العناصر موجودة في السطوح الداخلية المركبة والمتعددة .

ومازلت كلما مررت بسينما غازي التي كانت تقع في نفس المكان الذي تشغله الآن حديقة الأمة ملجأي الدائم أصدر حسرة على ما ضاع، ففي صالتها المظلمة تعرفت على فنون وعوالم متفرعة نقلتني من موقع التواجد المحلي الى مواقع كونية جديدة. وعبر شعرية السينما تعرفت لاحقا على العلاقة التي تربط كل الفنون بالأدب. وأضحت هذه الشعرية معيارا لكل جنس إبداعي ، سواء أكان رسماً او خطاً أو تشكيلا أو مسرحاً.

البيك والملك

ـ عام ٧٣ اقتبست من بريشت نصا مسرحيا اسميته "البيك والسائق" ويقول البعض ان هذه المسرحية سجلت أعلى صعدة فنية في تاريخ المسرح العراقي" فقد حازت على جائزة مهرجان دمشق. وكتب عنها نقود كثيرة في مصر، كما قال يوسف العاني. فلمَ الإعداد ، ولماذا اللهجة العامية؟

ـ كان هذا تحديثا للهجة المحكية السائدة من وجهة نظري محاولة لنفلها من صيغتها الشارعية الى مستوى الأدب ،بحيث تستطيع التعبير عن مشكلات فكرية معقدة. لم اكن مقتنعاً بالحوارات الفجة والخشنة التي يكتبها كتاب المسرح والاذاعة ،باعتبارها تمثل اصالة وقوة الجملة الشعبية، كنت اظن ان هناك طاقة غير موظفة في بناء جمالي يستعير لغة الشعب ، لكن بطاقة عاطفية وفكرية مختلفة. وهكذا دخل الكولاج في صلب العمل وجرى تطعيم او تنافذ ما بين لغتين عامية وفصيحة. وذلك ما تم الاتفاق عليه مع ابراهيم جلال.

ان حركة الشعر داخل الجملة الشعبية كانت امرا محسوسا لدى عدد من المثقفين، ومن بينهم ابراهيم جلال، ومثلما جاء النص متعمدا في هذا الاطار فانه مثل رداً على اولئك الذين وقفوا ضده ، مدعين بأن االشخصية العراقية لا تستطيع إلا ان تفكر بهذه الطريقة. هذا التطعيم المركب بين الفصيح والشعبي فسح المجال للجملة الشعبية ان تتنفس هواء، وبالتالي تذوب داخلها،مسجدة لهجة المدينة، ومتجاوزة ما يدعى بلهجة اهل بغداد. وهنا أيضا تدخلت السلطة، فمنعت المسرحية بعد ان شاهدها صدام واطلقتها الى سوريا والقاهرة، ليكون لها قيمة المستند بأن العراق طليعي ويتقدم على بقية الدول العربية في المسرح. وبالفعل حصلت المسرحية على جائزة مهرجان دمشق وحظيت بعشرات النقود الطيبة في مصر، وسقطت الحجة التي تقول ان اللهجة المحلية العراقية تشكل عائقا للمتفرج العربي، كونه لا يفهم اللهجة المحلية. ومن ناحية اخرى، سوق النظام جلبة مفادها انه النظام الوحيد الذي يسمح بمثل هذه الحريات، وبالتالي فإن المسرح يموت في مصر ويحيا في العراق. وقد صدق اليسار المصري، الذي لم يعرف سوى القليل عن اوضاع العراق، هذه الفك